الفصل الرابع

الاعتذار إلى غير الأنبياء

المبحث الأول

اعتذار إخوة يوسف إلى أصحاب العير

حينما تولى يوسف عليه السلام خزائن الأرض في مصر أحسن التدبير، فزرع زروعاً هائلة، واتخذ لها المحلات الكبار، وضبطها ضبطاً تاماً، فلما دخلت سنون القحط وسرى الجدب حتى وصل فلسطين، أرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة من مصر، فدخل أبناء يعقوب على يوسف عليهم السلام يطلبون الرزق، فعرفهم وهم له منكرون، فجهزهم بجهازهم، وأمرهم أن يأتوا بأخيهم من أبيهم ـ بعد أن أخبروه بأن لهم أخاً من أبيهم ـ ثم هددهم إن لم يأتوا به فلا كيل لهم، وذلك لعلمه باضطرارهم إلى الإتيان به، ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ٦١﴾[يوسف:61]، فلما رجعوا إلى أبيهم أخبروه أنه منع منهم الكيل حتى يأتوا بأخيهم من أبيهم، ولما فتحوا بضاعتهم وجدوها ردت إليهم، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥﴾[يوسف:65]، فوافق يعقوب عليه السلام أن يرسل أخاهم معهم بعد أن ذكرهم بحادثة يوسف عليه السلام وأخذ عليهم المواثيق، فخرجوا مع أخيهم، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه شقيقه الذي أمرهم بالإتيان به، وضمه إليه وأخبره بحقيقة الحال ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩ ﴾[يوسف:69] لاتحزن فإن العاقبة خير لنا، فلما جهزهم بجهازهم جعل مكيال الملك الذي يكيل به للممتارين في رحل أخيه الشقيق دون علمهم؛ توصُّلاً إلى إبقائه معه، فلما ارتحلوا عائدين نادى مناد ﴿ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠﴾[يوسف:70]، فأقبلوا عليهم لإبعاد التهمة، فإن السارق ليس له همٌّ إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه، لتسلم له سرقته، وهؤلاء جاءوا مقبلين إليهم، ليس لهم همٌّ إلا إزالة التهمة التي رموا بها عنهم، ماذا تفقدون؟

﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ٧٢﴾[يوسف:72]، فقالوا في رد التهمة ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٧٣﴾[يوسف:73]، بجميع أنواع المعاصي ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣﴾[يوسف:73]، فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، قالوا فما جزاء من سرق عندكم، إن كنتم كاذبين في دعواكم البراءة من السرقة؟ قالوا جزاء السارق أن يسلم رقبته للمسروق منه ليسترقه، فبدأ البحث في متاعهم، واستخرجها من وعاء بنيامين، حينئذ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده، على وجه لا يشعر به إخوته[1]، قال تعالى:﴿ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ٧٦﴾[يوسف:76]يسرّنا له هذا الكيد[2]، الذي توصل به إلى أمر غير مذموم ﴿ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ٧٦﴾[يوسف:76]؛ لأنه ليس من دينه أن يتملك السارق، وإنما له عندهم الضرب والتغريم، فلو ردت الحكومة إلى دين الملك، لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكنه جعل الحكم منهم، ليتم له ما أراد.

ولما تم ذلك، كان انتزاع أخيهم منهم بعد ما أعطوا أبيهم المواثيق لداهية تطيش لها الحلوم، فما كان منهم إلا أن قدموا اعتذارهم ليوسف عليه السلام﴿ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ ٧٧﴾[يوسف:77]، دفعاً للعار عنهم وتبرئةً لأنفسهم،[3] ومقدمةً لطلب أخيهم ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي

---

[1]ذهب أكثر المفسرين أن جعل السقاية في رحل أخيه كان عن علم أخيه، وذهب قلة منهم إلى خلاف ذلك، والذي يظهر والله أعلم، أن ذلك كان عن علم من أخيه (بنيامين)، وفي ذلك يقول ابن القيم راداً على من قال أن بنيامين لم يكن يعلم بوضع السقاية في رحله:"القرآن يدل على خلاف هذا، والعدل يرده، وأكثر أهل التفسير على خلافه". إغاثة اللهفان(2/ 109)، ويقول ابن كثير: "تواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده، معززاً مكرماً معظما". تفسير القرآن العظيم (4/ 400).

[2] ذهب أكثر المفسرين إلى أن الحيلة التي سلكها يوسف عليه السلام كانت وحياً من الله، وذهب بعضهم إلى أن ذلك لم يكن وحي، والراجح القول الأول، فهو الذي ينسجم مع النص القرآني وأخلاق يوسف عليه السلام، يقول الطبري: "فكاد الله ليوسف كما وصف لنا حتى أخذ أخاه منهم، فصار عنده بحكمهم ".جامع البيان(16/ 187).

[3] للمفسرين أقوالٌ كثيرةٌ في سرقة يوسف عليه السلام، والذي يظهر أنها كلها لا تستند إلى حق، وإنما هي أكاذيب هو منها براء، يقول الشوكاني في الرد على افترائهم على يوسف عليه السلام:" فما هذه الكذبة بأول كذباتهم". فتح

نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾[يوسف:77]، أسرَّ ذلك يوسف في نفسه، ولم يبدها لهم، بل كظم الغيظ، و أتم الأمر، ثم سلكوا معه مسلك التملق، لعله يسمح لهم بأخيهم[1] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨﴾[يوسف:78]، فرد يوسف عليه السلام طلبهم ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾[يوسف:79].

شذرات في اعتذار إخوة يوسف لأصحاب العير:

1. كان اعتذار إخوة يوسف عليه السلام لنفي المعرَّة عن أنفسهم، لا لمحو ذنب أخيهم، يقول ابن عاشور:"لما بهتوا بوجود الصُواع في رحل أخيهم اعتراهم ما يعتري المبهوت فاعتذروا عن دعواهم* تنزههم عن السرقة، إذ قالوا: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣﴾ عذرا بأن أخاهم قد تسربت إليه خصلة السرقة من غير جانب أبيهم فزعموا أن أخاه الذي أشيع فقده كان سرق من قبل، وقد علم فتيان يوسف عليه السلام أن المتهم أخ من أم أخرى، فهذا اعتذار بتعريض بجانب أم أخويهم وهي زوجة أبيهم".[2]

القدير(3/ 54)، ويقول سيدقطب:" وتنطلق الروايات والتفاسير تبحث عن مصداق قولهم هذا في تعلات وحكايات وأساطير، كأنهم لم يكذبوا قبل ذلك على أبيهم في يوسف، وكأنهم لا يمكن أن يكذبوا على عزيز مصر دفعاً للتهمة التي تحرجهم". في ظلال القرآن (4/ 2022).

[1] ينظر: النكت والعيون (3/ 64)، الكشاف(2/ 492)، نظم الدرر(10/ 178)، البحر المديد (2/ 616)، تيسير الكريم الرحمن (ص: 402).

*

[2] التحرير والتنوير (13/ 34)

2. تلبسوا باعتذارهم ذنباً يحتاج إلى اعتذار، فقد افتروا على يوسف ذنباً هو منه بريئ.

3. حكمة يوسف عليه السلام في عدم الرد عليهم، وفضح اعتذارهم الكاذب، لما كان يرجوه من الخير فيما بعد، وفي هذا درس يفاد منه الصمت وعدم الرد في مقابلة الاعتذارات الكاذبة؛ إن كان يرجى في ذلك مصلحة.

4. لم يتغير موقف أولاد يعقوب في حال الصغر والكبر معا، فقد تسلحوا بالاعتذار الكاذب حينما ألقوا يوسف في البئر، وجاؤوا أباهم يبكون ﴿ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾[يوسف:17]، وها هم اليوم يسلكونه مرةً أُخرى للخروج من مأزق سرقة أخيهم ﴿ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ ٧٧﴾.